منهج موسى المازوني في الانتصار لمناقب الصالحين وأحوال المريدين وإبطال كلام الزائغين بالمغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين
من خلال مخطوط صلحاء وادي الشلف[1].

أ/ نور الدين غرداوي [1]
[1] جامعة الجزائر 2

شكل موضوع الولاية الصوفية بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط أحد المواضيع الهامة والمعقدة، التي قيل عنها الكثير، فَصَدَرَتْ العديد من المواقف والأقوال والآراء حول هذه المسألة من مختلف طبقات المجتمع، خاصة فقهاء ومُتَكَلِّمِي العصر.

كما أخذت ظاهرة الأولياء والصلحاء حيّزاً كبيراً من اهتمامات السكان، لما لاحظوه من خوارق وكرامات يَحُوز عليها هؤلاء الأولياء، فكانوا يتبركون بها، ويلجئون إليهم وقت الحاجة والشدة بطلب الدعاء، باعتبار دعائهم يستجاب لصلاحهم وعلمهم، فالأولياء رجال مقربون إلى الله، لهم إمكانية الاتصال به أكثر من غيرهم، ولهم قدرة عجيبة على الأفعال الخارقة، يقصدهم المريض فيشفى، ويسألهم ذو الحاجة فيرزق، فَيَضَلُّ الوليّ مَلاَذَ قومه ومرجعيتهم في السراء والضراء بعد الله سبحانه وتعالى.

وحاضرة مازونة وأحوازها عرفت العديد من الأولياء والصلحاء، في أواخر عصر الموحدين وبداية عصر الزيانيين، اختلفت الآراء والأقاويل في المنطقة حول كرامات ومناقب هؤلاء الأولياء، فزعم الكثير من هؤلاء المتكلمين على أنها مجرد بدع وخرافات ولا أصل لها في الدين.

لذا حاول الفقيه **موسى المازوني** الردّ على تلك الأقاويل والآراء والانتصار للأولياء والصلحاء والمريدين بتأليف سمّاه **صلحاء وادي الشلف**.

يقدم لنا هذا التأليف صورة واضحة عن **أولياء وصلحاء** منطقة وادي الشلف وما جاورها، كمازونة ووادي رهيو، وما اختص به هؤلاء الأولياء من كرامات ومكاشفات، جمعت من حولها سكان تلك المناطق، خاصة حاضرة مازونة، لما لهذه الأخيرة من أثر فعّال على المناطق المجاورة، لأنها كانت حاضرة العلم والعلماء.

كما يتضح لنا من خلال هذا التأليف الدور الذي لعبه هؤلاء الأولياء والصلحاء في مختلف مجلات الحياة في منطقتي وادي الشلف ومازونة وما جاورهما، وكيف تفاعل هؤلاء السكان مع طبقة الأولياء والصلحاء والمريدين.

لذا سنحاول في هذا البحث **استكشاف** منهج موسى المازوني في إثبات مناقب الأولياء والصلحاء وما يظهر على أيديهم من الكرامات الخارقة للعادات وإجابة الدعوات، والرد على هؤلاء الزائغين المتكلمين، النافين للكرامات، مدّعين بأنها بدع ولا أصل لها في الدين.

1- التعريف بالمؤلف وكتابه:

أ - **التعريف بالمؤلف:** هو أبو عمران موسى بن عيسى بن يحيى بن إدريس الناصر بن عبد الرحمن، صاحب مازونة[2] القديمة[3]. وصفه أحدهم بالفقيه الأجل، المدرس، المحقق، القاضي الأكمل، وهو والد صاحب النوازل.[4] هذا هو الاسم عرف به في كتب التراجم، التي تداولته على قلّتها، وهو الاسم الذي وجدناه في خاتمة النسخة الوحيدة، التي تحتفظ لنا بها المكتبة الوطنية المغربية من الصلحاء، جاء فيها:" كمل جميع الديوان المبارك تأليف الشيخ الإمام، العالم، القدوة، الصّدر، الأوحد، سيدي موسى بن عيسى المازوني.[5]

من علماء القرن الثامن الهجري. **مغيلي** القبيلة[6]، **مازوني الموطن**، لُقِبَ مؤلف "صلحاء وادي الشلف" بالعديد من الألقاب، أشهرها:

- **الفقيه**: كل من ترجم له لقّبه بالفقيه، وهذا نتيجة لاشتغاله بالإفتاء، عاش في بيئة متشبّعة بالفقه، حتى سُمِّيَ بالفقيه المالكي الضَلِيع، تمكن في السنة حتّى لم يدع للبدعة مدخلاً إلاّ سدّه، ولا لأهلها مقتلا إلاّ قدّه، فهو في الدين طود شامخ.[7] والمتصفح لديوان "الدرر المكنونة في نوازل مازونة[8] التي جمعها ابنه، يقف على بعض المسائل كانت تُعرض عليه، من أجل البت فيها وفق الحكم الشرعي، إن توفرت لهم الحجة الدامغة، أو يراسل بها بَعْضُ فقهاء عصره إن وجد فيها لبساً أو استشكل عليه أمرها.

- **كاتب القاضي:** يستشف من كتابة قلادة التسجيلات والعقود وتصرف القاضي والشهود، أنه شغل منصب الكتابة والشهادة في علم

التوثيق، وهو في ريعان شبابه، وفي ذلك يقول:"...وإنّي لَمَن قَرَعه في عنفوان الشباب وتخططت بالشهادة، وتحليت بِحُلَاهَا، وقرطست بصنع سنين مع الرمات في مرماها، فضمّني الدكان مع خشب أجلاف خشان يَدّعُون، فلا يحسنون، ويوهمون أنهم يعرفون ويجهلون ولا يعلمون، كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا [9]... "[10].

لكن لا نعرف المدة التي قضاها في منصب الكتابة والشهادة قبل أن يرقّى إلى خطة القضاء.

- **القاضي:** هو اللقب الذي اشتهر به، ورثه أباً عن جد، شغل خطة القضاء، بعد ما شغل وظيفة الكتابة والشهادة وأثبت جدارته في علم التوثيق، رُقِّيَ إلى منصب أعلى منه، وهو **خطة القضاء**، التي حَسَدَهُ عليها خصومه، الذين كانوا يمارسون معه الكتابة والشهادة، وتآمروا عليه، عندما أدركوا أن هذه الوظائف داخلة تحت أمر القاضي، وهو صاحب القرار في كل الوظائف الداخلة تحتها، فأرادوا زحزحته من هذا المنصب، ليتسنّى لهم فعل ما يشاءونه، حيث قال في مقدمة تأليفه:" فلمّا ارتقيت لخطة القضاء أعلمت بصيرتي، وحلّ في أحوالهم فكرتي، فرأيت أن خيرهم وشرهم فقيد في صحيفته، فاستدرجتهم بسياسة ومحاولة لما تحسن به عقبى الجميع، فلزمت الحال مألوفها، وعسر عليها الانتقال عن ضبطها، وهم مع ذلك يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم[11] فإذا أعينهُم توفى إليّ بما كتمته قلوبهم من الحسادة..."[12].

ووصل الحد بأحد حاسديه، الذي كان يشرف على الكتابة إلى اللغو فيه وقول الزور أمام مرأى ومسمع القبيح والمليح من مجتمع بلدته، حتّى صدّقه بعض القوم ووقفوا إلى جانب خصمه، عندها

اضطر إلى توقيفه عن الشهادة والكتابة، واختار لهذا المنصب أحد الفضلاء النجباء من أصحابه، وفي ذلك يقول:"...وصار يُولِدُ في زوراً من الأقوال ويَبَثُّهُ في مجتمع الأخيار والأرذال، وأعانه عليه قوم آخرون، فَأَحَلْتُ الأمر على الله وأوقفته عن الشهادة، وقيّدت يده على الكتابة، فأبدا لذلك وأعاده ونقص وزاد ، فكان ذلك عندي من قبيل اللغو، الذي غريمته حزاما، فتخيّرت للشهادة والكتابة فضلاء من أصحابي وأخياراً نجباء من أترابي، ذوي مروءة وديانة وعفاف وصيانة. فقصرت أيديهم عن الكتاب، إذ لم تتقدم لهم مداخلة مع أصحاب هذا الباب، فصرت ألقي عليهم مرة وأبيض لهم أخرى.[13]

لكن كتب التراجم سكت عن متى تولّي منصب القضاء والمدة التي قضاها في هذا المنصب، لكن يبدوا أنه تقلّد هذه الوظيفة بعد أن كسب من الخبرة والكفاءة اللازمتين لشغل هذا المنصب، وعَمَلُهُ تحت إمرة القضاة، ممن سبق وتواصل معهم، وأخذ عنهم طرق الاجتهاد في النوازل التي كانت تحل بالمجتمع، من خلال تقلده منصب كاتب القاضي.

- **المقرئ والمدرس:** نعته أحمد بابا التمبكتي بهذا اللّقب، والمتصفح لمسائل نوازل ابنه يستنتج بأنه كان صاحب مجلس إقراء وتدريس، وأشار إلى ذلك ابنه في نوازله عند حديثه عن مسألة تطاير فيها طلبة مازونة، بقوله: "... مسألة وقعت بين مولاي الوالد وبعض الفقهاء المدرسين في مجلس تدريسه..."[14].

وأضاف الحفناوي ألقاب أخرى له في معجم تراجمه، بقوله:" عالم جليل، وعامل أصيل، تمكن في السنة حتّى لم يدع

للبدعة مدخلاً إلاّ سدّه، ولا لأهلها مقتلا إلاّ قدّه، فهو في الدين طود شامخ، ذو مجد بازخ على أولياء الله مناضل، وفي سبيل الله عن حماهم مقاتل، وقفت له على تأليف عظيم القدر كبير الفائدة، لخّصه من كتاب له في مناقبهم سمّاه ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار.[15] واقتصر في ملخصه على مناقب المشيخة المشتهرة بالصلاح في أوطان شلف[16] وذكر فيه علماً كثيراً نافعاً، يغسل أدران القلوب، ويعذب اطلاعه لكل معتقد أديب، ولكنه لم يزد على مناقب سيدي واضح الشلفي، وسيدي أبي يعقوب، وسيدي أبي عبد الله الهواري التنسي، وسيدي فاتح بن يوسف، وسيدي أبي يحيى، وسيدي يحيى بن امهلول...".[17]

لا نعرف لميلاد موسى المازوني تاريخاً باتفاق كل من ترجم له، وكذلك يجهل تاريخ وفاته، لكن المؤكّد من خلال كتب التراجم أنه **ولد بمازونة**، لذا يقال له المازوني، وبها أخذ تعليمه على يد أبيه عيسى، الذي كان مدرساً وفقيهاً وقاضياً بهذه البلدة.

تربّى وترعرع في أحضان أسرة علمية عريقة توارثت العلم أباً عن جد من **قبيلة مغيلة**[18]، عُرفت بمكانة اجتماعية عالية، ذات وجاهة واحترام، اصطبغت حياتها بالصبغة الدينية، عُرِفت بالصلاح وحسن التدين والسيرة الحميدة، فنال حظه من التربية والتعليم في سن مبكرة، كانت سبباً في تَفَتُّقِ مواهبه وقدراته الذهنية، وتوجيهه التوجّه السليم نحو المبتغى الذي كانت تريده أسرته وسطرته منذ عقود زمنية طويلة، فاشتغلت بمنصب القضاء والتدريس بمازونة وضواحيها، فهو من بيت علم متعدد المعارف العلمية.

- **شيوخه:** لم تذكر كتب التراجم التي ترجمة له على قلّتها شيوخه، لكن يبدوا أنه أخذ **فقه القضاء** على والده عيسى، الذي كان قاضياً وفقيهاً، يشار إليه بالبنان في بلدة مازونة وحتى خارجها، وكان والده يُتْقِنُ هذه العلوم إتقاناً تاماً بحكم منصب القضاء والتدريس، اللذين كان يمارسهما في مازونة، كان جامعاً لخصال كثيرة، الكرم والمروءة، الفتوة مع الآداب والروايات، وكان له عقلٌ وفضائل غير مستقصات، رحل للعراق واكتسب الأصول العتاق، صحح متونه، وصّوب عيونه.[19] عاد إلى مازونة واستثمر تلك المعارف والعلوم والخصال في خطتي الفتوى والقضاء ومنصب التدريس.

كما يستشف من كتاباته على وجه التحقيق أن بعض الشيوخ الذين درس وأخذ عنهم موسى المازوني، هُم شيوخ تتلمذ عليهم **بالمجالسة أو بالمصاحبة أو المراسلة**، وذلك حسب ما ورد في تأليفه هذا، بالرغم من أن كتب التراجم لم تُشِر في الترجمة المختصرة له إلى شيوخه.

إلاّ أننا نقف في كتابه صلحاء وادي الشلف الذي نحن بصدد دراسته على مجموعة من الشيوخ نوجزهم في ما يلي:

والده **عيسى بن مخلوف بن عيسى المغيلي**، من فضلاء المالكية وأعيانهم، حُمدت سيرته في القضاء، قال خالد البلوي: شيخنا العالم، الأوحد أبو الأصبع، أحد الأعلام الجلة، وعلماء الملّة، إمام الأنام، وعلم الأعلام في الفروع والأصول والكلام، مصيباً في اختياراته من استيفاء واختصار، فاق في ضبط الفوائد والفرائد، فهو على الإطلاق العالم، الصدر، عالي القدر، جمع إلى ذلك بين كرم

ومـروءة وظـرف وفتـوة مـع آداب وروايـات، وعقـل وفضـائل غيـر مستقصـات، رحـل للعـراق واكتسـب الأصـول العتـاق، صحح متونـه، وصّـوب عيونـه، سـمعت منـه فوائـد، وقـرأت عليـه بعـض مختصـر الجلاب للعـز النيلي، وأذن لي في روايته عنـه، وتفقـه فيـه على مؤلفـه ببغـداد، وأذن لـه في تدريسـه وأجـازه عامـة. تـوفى بعـد سـنة 791هـ/ 1389م.[20]

* الأستاذ **أبو زكريا يحيى بن عمر**، من علماء مازونة خلال القرن الثامن الهجري، روى عنه كثيراً من مناقب وكرامات من ترجم لهم في هذا الكتاب، منها قوله: حدّثنا شيخنا الأستاذ العدل، أبوزكريا يحيى بن عمر.[21] وفي رواية أخرى عند ترجمته للشيخ سيدي فاتح يذكره بالأستاذ أبوزكريا بن علي.[22]

* **الحاج يعقوب**، من علماء وأفاضل مازونة، ذكره في روايات الكرامات التي سردها للصلحاء الذين ترجم لهم

* **سيدي يحيى بن علي**، من علماء وأفاضل مازونة، ذكره أيضاً في روايات تلك الكرامات.

نجده صرّح بذلك في العديد من المواضع، فعند حديثه عن تقطب الشيخ سيدي واضح، قال:"... وأخبرني به **والدي** رحمه الله **وشيخنا أبو زكريا يحيى** غير ما مرّ أن سيدي واضح نفعنا الله به لم يمت حتّى تقطّبَ، لكن الشيخ **سيدي يحيى بن علي** في جمعٍ كصيرٍ، قال لي: بما تلقّفه من أهل السنن أنه تقطب قبل موته بنصف يوم، وغالب ظنّي أنّي هكذا **سمعت من والدي** رحمه الله.

وأمّا **الحاج يعقوب، فقال لي**: إنما المحقق عندي من ذلك ربع يوم، وذكر مؤلف عنوان الدراية أن شيخ المشايخ سيدي أبا مدين تقطب قبل موته بثلاث ساعات.[23]

وغيرهم من الشيوخ، الذين ذكرهم في تأليفه هذا أو أشار إليهم بدون ذكر أسمائهم، ففي ترجمته للولي سيدي فاتح، قال: ذكر لي عنه غير واحدٍ ممن أثق به من أصحابنا، ممن مشى لزيارته أنه مكث عنده أياماً.."[24]

كما أنه تتلمذ على يد الكثير من مشايخ وقته خارج بلاد المغرب، دون الإشارة إلى وجهته، التي كانت نحو المشرق أو الأندلس، وهو ما أمدنا به في أحد مواضع كتابه هذا عند حديثه عن التضرع لأولياء والصلحاء بإجابة الدعوات، وكان استشفاعه للولي سيدي واضح، بقوله:"...وقد جرّبتُ ذلك في نفسي، فإنّي لمّا رجعت من وجهتي لبلاد المغرب أتَحَمَّل مركوبي، وضاق صدري، فاستشفَعتُ إلى الله تعالى به في إنفاذ رحلتي وتفريج كربتي، فأذاقني بَرْدَ الإجابة لوقتي، وقد بيّنت ذلك على وجهه في الأصل[25]، فاكتفيت هنا بالإيماء إليه.."[26].

لكن لا نعرف من هم هؤلاء الشيوخ الذين تتلمذ عليهم، لكن يبدوا على عادة أهل زمانه عند رحلتهم العلمية، يقصدون كبار الشيوخ في مختلف فنون العلم والمعرفة للأخذ عنهم، خاصة الفقه والتصوف، اللذين تميّز بهما في كتاباته الستة، التي وقفنا عليها لحد الآن.

- **مؤلفاته:** وقفنا إلى حد الآن على ستة كتب للفقيه موسى المازوني، مازالت مخطوطة، لم تنشر، بعد، نحن بصدد تحقيق مخطوط صلحاء وادي الشلف، ندعوا الله أن يعيننا على تحقيقه

وإخراجه للقارئين والباحثين للاستفادة منه في أقرب وقت. وهذه الكتب، هي:

1- ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار.[27]
2- الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق في مجلد.[28]
3- حلية المسافر وآدابه وشروط المسافر في ذهابه وإيابه.[29]
4- قلادة التسجيلات والعقود وتصرف القاضي والشهود.[30]
5- تحلية الذهب في علم القضاء والأدب.[31]
6- صلحاء وادي الشلف، وهو مختصر للكتاب الأول، وهو موضوع دراستنا.

مذهبه: كان موسى المازوني سنياً، عَلَماً في مذهب الإمام مالك، كان من أبرز الأئمة الذين ساهموا في انتشار مذهب الإمام مالك في عصره وتثبيت قواعده بالمغرب الأوسط والذبّ عنه، خاصة في وجه المعتزلة وبعض الفرق الضالة، ممن حاولوا النيل من عقيدة أهل السنة في أواخر عصر الموحدين وبداية عصر الزيانيين، فكان لهم بالمرصاد بما أوتي من حجة وقوة وبرهان، كما فعل في هذا التأليف الذي نحن بصدد دراسة منهجه الذي سار فيه مدافعاً عن مناقب وكرامات الأولياء و الصلحاء.

كان سني المذهب (مالكي)، أشعري العقيدة، الجنيد السالك الطريقة.

ب - التعريف بالتأليف(صلحاء وادي الشلف):

يعدُّ مخطوط صلحاء وادي الشلف من مؤلّفات التراجم المحلية، التي خصصها صاحبها لأولياء وصلحاء بَلْدَتِهِ وما جاورها من

الأحواز التي تقع على ضفاف وادي الشلف بالمغرب الأوسط، الذين عاشوا خلال القرنين السابع والثامن الهجريين.

كتب تأليفه هذا بعد ما راسله أحد الأصحاب طالباً منه نسخة من كتابه" ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار"، الذي دافع فيه عن مناقب الأولياء والصلحاء وما يظهر على أيديهم من الكرامات الخارقة للعادات، وإجابة الدعوات. وقد بيّن دواعي تأليفه هذا، بقوله:"... وبالسبب الباعث على ذلك، فَتَشرّه لسماع ذلك، وللوقوف على ما قيّدته من ذلك، ورغب إليّ بحق **الصحبة** أن أوجه له **الأصل**، فتعذّر عليّ بعثه، ووعدته أن أظهر له شيئًا من فضائل الشيخ الولي أبي البيان واضح[32]، وطرفاً ممّا تحصّل لديّ من مناقب غيره من صلحاء شلف المشهورين بالبركات وإجابة الدعوات...".[33]

بدأ تأليفه هذا بمقدمة أوضح فيها ثبوت كرامة[34] الصالحين والردّ على من كَرِه من الزائغين، وفي ذلك يقول:" بعد أن صدّرت هذا بمقدمة جليلة، يستدل بها على ثبوت كرامة الصالحين، والرد على من كره من الزائغين، فإن المعترضين على ذلك بجهلهم وركيك عقولهم، ونقصان فهمهم، كذّبوا بما لم يحيطوا به علماً، فنظروا بمرآتهم الناقصة، وضعّفوا عقول الأولياء فيما يستخرجونه من الحكم النورانية...".[35]

بعد ما أنهى مقدمة كتابه هذا، بدأه بترجمة أبو البيان سيدي واضح، ثم سيدي أبي يعقوب، وسيدي أبي عبد الله الهواري التنسي، وسيدي فاتح بن يوسف، وسيدي أبي يحي، وسيدي يحيى بن ابهلول.

قام بتقييد تأليفه هذا بمجموعة من الأدلة والبراهين، التي استدل بها في العديد من المواضيع التي تتعلق بالصلحاء والأولياء، مدافعاً بها عن مناقبهم وما أيَّدَهُم الله من الكرامات وإجابة الدعوات، فاستنبط مادة تأليفه هذا من الكتاب والسنة، وأدمج فيه مواعظاً وأشعاراً وآثاراً وبعض أسرار أهل التصوف، وفي ذلك يقول:"...وأدمجت له عند تقييدي له هذا، مواعظ ذكية وأشعاراً معنوية تُرْفِقُ القلوب وتذري الدموع، وجلبت له شيئاً من العجائب المأثورة عن القوم، وبعض أسرار أهل التصوف، وأحاديث نبوية، ومجاهدة القوم نفوسهم، وكيفية أحوالهم تفيد بمجموعها رغبة في صحبة الفضلاء ونشاطاً لزيارة الصلحاء والأخوان، وحرصاً في حضور مجالسهم برؤيتهم، والتشبث بخدمتهم..."[36].

كما نجد في هذا التأليف العديد من الإشارات إلى المواقع والمناطق الجغرافية، كموضع مكناسة العباد، موضع تاعشوشت الذي يقع قرب جبل وافرشان[37] بأعالي وادي رهيو، وموضع بوازني، الذي حل به السلطان يغمراسن عندما جاء لمداهمة قبيلة مكناسة، وغيرها من المواقع الجغرافية.

وهناك إشارة إلى بعض المباني العمرانية، كمسجد أبي ماتعٍ بمازونة، الذي تحول إلى مسجد سيدي عزوز في عهد موسى المازوني، ومسجد كركار، وغيرهما.

كما لا يخلوا هذا الكتاب من بعض الأحداث السياسية والعسكرية، كحملات يغمراسن بن زيان على القبائل الثائرة عن مملكته، المتمردة عن سلطته، التي قصد بها قبيلة مكناسة ومغراوة وبني توجين.

وزيارته للولي المرابط أبو البيان سيدي واضح بجبل وافرشان، وما حصل معه من مكاشفات[38]، وتبرك.

كما نقف في هذا التأليف على أسباب إقامة الشيخ سيدي واضح **بجبل وافرشان** بواد رهيو، الذي اقترن باسمه، بعدما كان خمَّاساً عند الشيخ **أبي يكنَ**[39]، وهو أحد المشاهير المعروفين بالصلاح بأحواز وادي الشلف، وكان مستتراً في أحواله يخفي أمره، وحين برح الخفاء وانكشف أمره، انصرف من عند هذا الفقيه إلى ثغور فاتين، ومنها إلى تاعشوشت قبلة جبل وافرشان. وهذا الجبل أصبح يطير في فضاء الزمن بجناحي الحقيقة والشريعة، وظل رمزاً من رموز الصلاح، يزار للتبرك.

يستشفّ من خلال هذا الكتاب دور التصوف في مجال التواصل بين الأقاليم والأمصار القاصية والدانية، وكان للتصوف رجال وأولياء وصلحاء أنيطت بهم رسالة الاتصال والتواصل، بين الأحباب والأعداء، كسّر هؤلاء كل الحواجز، التي كانت عائقاً تحول دون التقارب في الرؤى والأهداف والمصالح، فاجتمع من حولهم الفقهاء ورجال السياسة ورجال المال والعامة.

2- منهج موسى المازوني في الانتصار لمناقب الصالحين وأحوال المريدين

وإبطال كلام الزائغين بالمغرب الأوسط من خلال ما ورد في مخطوط صلحاء الشلف

من الصعب جداً تتبع منهج موسى المازوني في مؤلفاته الستة، التي ذكرناها عند تعريفنا له في بداية هذا البحث، ذلك أن جل ما ألّفه

وما وصل إلينا مازال مخطوطاً، لم يحقق بعد من جهة، ومن جهة ثانية يصعب الحصول على نسخ تلك المؤلفات من أماكن تواجدها، ومن ثمّ تتبع كتاباته بالتدقيق والتمحيص، حتّى يتجلّى بوضوح منهجه في التأليف والكتابة.

إلاّ أن المتصفح لمخطوط صلحاء وادي الشلف، الذي هو موضوع بحثنا، يلاحظ أن موسى المازوني اقتفى في هذا التأليف لأثر السلف الصالح في الالتزام بالقاعدة السنية، وانصب اهتمامه على مبادئ الإسلام ومحاربة البدع، لإلمامه الواسع **بالعلوم النقلية والعقلية**، وقد جنح في ذلك إلى أسلوب **الترهيب والترغيب** في مخاطبة صاحب الرسالة في هذا الكتاب، فكان دائماً يجيبه بعبارة **يا أخي**، ثم يقدم له الأدلة والبراهين من الكتاب والسنة، وكان يُدْمِجُ له بين الحين والآخر مواعظ وأشعار وآثار صالحة منيقة، ومباحث فقهية، وبعض أسرار أهل التصوف كما أشرنا إليه سابقاً.

بدأ تأليفه هذا بمقدمة أوضح فيها ثبوت كرامة[40] الصالحين والردّ على من كَرِه من الزائغين، وفي ذلك يقول:" ...بعد أن صدّرت هذا بمقدمة جليلة، يستدل بها على ثبوت كرامة الصالحين، والرد على كره من الزائغين، فإن المعترضين على ذلك بجهلهم وركيك عقولهم، ونقصان فهمهم، كذّبوا بما لم يحيطوا به علماً، فنظروا بمرآتهم الناقصة، وضعّفوا عقول الأولياء فيما يستخرجونه من الحكم النورانية...".[41]

بعد ما أنهى مقدمة كتابه هذا، بدأه بترجمة أبو البيان سيدي واضح، ثم سيدي أبي يعقوب، وسيدي أبي عبد الله الهواري التنسي، وسيدي فاتح بن يوسف، وسيدي أبي يحيى، وسيدي يحيى بن امهلول.

كما قام بتقييد تأليفه هذا بمجموعة من الأدلة والبراهين، التي استدل بها في العديد من المواضيع التي تتعلق بالصلحاء والأولياء، مدافعاً بها عن مناقب الصلحاء والأولياء وما أيدهم الله من الكرامات وإجابة الدعوات، فاستنبط مادة تأليفه هذا من الكتاب والسنة، وأدمج فيه مواعظ وأشعار وآثار وبعض أسرار أهل التصوف، وفي ذلك يقول:"...وأدمجت له عند تقييدي له هذا، مواعظ ذكية وأشعاراً معنوية تُرْفِقُ القلوب وتذري الدموع، وجلبت له شيئاً من العجائب المأثورة عن القوم، وبعض أسرار أهل التصوف، وأحاديث نبوية، ومجاهدة القوم نفوسهم، وكيفية أحوالهم تُفيد بمجموعها رغبة في صحبة الفضلاء ونشاطاً لزيارة الصلحاء والأخوان، وحرصاً في حضور مجالسهم برؤيتهم، والتشبث بخدمتهم...".[42]

فنجده استخدم **أسلوب الترهيب**، عند مخاطبته صاحب الرسالة، بقوله:"... ومن أقام على الإنكار بالقدر والقدرة، عوقب بثلاث: فَقَدَ فَهْم الكتاب، والضلالة عن السنة، والإتباع.[43]

كما صَنَّفَ نَاكِري الكرامات إلى الطوائف الزائغة، التي أعمى الله بصائرها، وبَنَتْ مذهبها على الركيك، فقال:"...فمن ظهرت له الكرامات واشتهرت عنه المناقب السُيّان، وإنما ينكرهنّ هذه الآيات المعتزلة الآن، الله تعالى أعمى بصائرهم، فضلُّوا وأضلُّوا، لأنهم بنو مذهبهم الركيك، الذي خالفوا فيه جماعة أهل السنة على إنكار ما لا تسعه عقولهم الواهية، كما أنكروا القدر السابق، والحفظة وعذاب القبر والميزان والسيراط ورؤية الله في الآخرة، وغير هذا مما جاءت به الأخبار الصحيحة، فحرّفوا في تأويلها واتبعوا أهوائهم، وتحيّلوا لنصرة

مذهبهم بالشبه الضعيفة، وجلبوا التأويلات الفاسدة والأجوبة الباردة، التي لا تعضدها أصول الشريعة وكتاب الله وسنة رسوله...".[44]

كما **حذّر** موسى المازوني السائل في هذا التأليف مخاطباً إياه، بقوله: "... فإياك أن يعارضك شكٌّ أو تردد في هذه الآيات التي خصّ الله بها أفراد العباد أو تغتر بها فكرتك، فإنها صحيحة، يجب على كل مكلف الإيمان بها، وتوقُّفُك في ذلك شعبة من الاعتزال، وفيها أشبه من أهل الصدر الأول من الأئمة المصنفين، وقيّدوه في تواليفهم من كرامات الأولياء ما يغنينا للتعرض بجلبها وأذهى في الكثرة والاشتهار والاستفاضة والانتشار...".[45]

أمّا أسلوبه الترغيبي الذي انتهجه في الانتصار للأولياء، يتضح لنا في العديد من النصائح، التي كان ينصح بها صاحب الرسالة في كتابه هذا، جاء في إحداها، قوله: "...من ثبت على التصديق بالقدر والقدرة، وهب له ثلاث: عقل صحيح بترك المنازعة، وعلم نافع باحتساب المقاومة، وعمل واجب بوجوب مواريث الحكمة...".[46]

كما نقف في هذا المنهج على **التحفيز والتشجيع** في سلوك طريق الأولياء لبلوغ مراتبهم، بقوله: "...والسبب الموصل لهذه المقامات الشريفة والأحوال هو المجاهدة في تصفية الأعمال وتهذيب القلوب والأسرار بمراقبة ذي العزة والجلال...".[47]

كما نجده اتبع **منهج جذب وتشويق** السامع ومريد هؤلاء الصلحاء، بقوله:"...ومقصودي بذلك علم الله تشويق الفقراء وتنشيطهم للطاعة والخدمة بسماع تلك الحكايات الجليلة، ليقوى عنصر يقينهم، وتضمحل الشكوك والأوهام عن أفئدتهم لما يستبعده الفسقة من براهين الصالحين وإخوانهم من ضلال المعتزلة الملحدين

وشياطين القدرية المبطلين، لأن الله تعالى أعمى بصائرهم عنها، وختم على قلوبهم حتّى لا يؤمنوا بها، ولو شاء ربّك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً[48] ... ".[49]

كان اختيار موسى المازوني **لهذا المنهج** نتيجة حتمية للردّ على بعض المتكلمين ممّن طعن وقصّر في حق الأولياء والصلحاء، وصنفهم ضمن المبتدعة، وما أظهره هؤلاء الزائغين من عداوة وتجريح ضدّهم، وهذا ليظهر لَهُم الأدلة القاطعة المستمدة من الشريعة الإسلامية حقيقة ما خصّهم الله من كرامات ومكاشفات.

كما يتضح لنا من هذا المنهج أن الفقيه موسى المازوني ينتصر للمرابطين والأولياء والفقراء، انتصاراً منقطع النظير، فكان يأتي بالأدلة من الكتاب والسنة والأشعار، والآثار العجيبة من أهل القوم(المتصوفة) ليثبت مناقبهم وكراماتهم، التي طعن فيها الكثير من المتكلمين، وكان متشدداً معهم متعصّباً، وتجلّى ذلك من خلال الألقاب والأسماء التي أطلقها عليهم، مثل الفسقة، ضلال المعتزلة، الملحدين، شياطين القدرية، الزائغين...الخ.

والظاهر أنه سلك في **تأليفه** هذا، اتجاهان، **الاتجاه الأول:** خصصه لـ إثبات كرامات الأولياء، واعتمد في ذلك على **الدليل النقلي**، من خلال **البحث في القرآن والسنة، باستطراد الآي والأحاديث الشريفة التي** تُثْبِت كرامات الأولياء، لأنها من أصول الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، رغم جحد هؤلاء المتكلمين لها وإنكارها.

وممّا لاحظناه في مقدمة كتابه هذا التي خصّصها لإثبات الكرامات استدّل بعدد كثير من الآي، فنجده في 16 موضعاً جاء

بنصوص من القرآن، كما استطرد عدد كثير من الأحاديث الشريفة والآثار الصالحة المنيقة، والمباحث الفقهية والفتاوى الشرعية..الخ، شكلت هذه المقدمة حوالي سدس حجم الكتاب(50 ورقة).

لكن الملاحظ في **منهجه النقلي** هذا كان يطيل استطراد الحكايات، وعلَّلَ موقفه ذلك، بقوله:"...نطيل بذكر الحكايات للشواهد، وليس يصحّ في الأذكار شيء إذا احتاج النهار إلى دليل...".[50]

بينما نجده يحتاط في منهجه هذا ممن يَنْدَسُّ بين الأولياء ويدّعي الصلاح وظهور الكرامة على يده، وهو من السحرة والمشعوذين والمبتدعين، ولا يصدّق ذلك إلاّ بالتحقق، وفي ذلك يقول: ونحن **لا نجيز هذه الكرامات إلاّ برواية عدل عن عدل**، وبمشاهدة العيان ممن عرف فضله وثقته، واعلم أن آيات الرسل تمتاز عن آيات أولياء الله بأشياء، فآيات الأنبياء خروج الحيوان وذوات الأرواح من الجماد، كناقة يتّبعها فصيل أو حية تبتلع الصخر من عصا أو طائر من طين يطير بجناحيه، وشاة مشوية تتكلم ونحو هذا. وآية الأولياء فهي جماد من جماد كخبز من طين، وسويق من تراب، وذهب من مدر، وماء عذب من أجاج، وتفجر ماء من صخرة وأرض، وبركة الطعام، فالتصديق بهذا أو شبهه يزيد في الإيمان، ومعاذ الله أن تبلغ رتبة الأولياء رتبة الأنبياء، هذا لا يتخيّل في عقل صادق الإيمان...".[51]

أمّا الاتجاه الثاني الذي سلكه هو الدليل العقلي، فالعقل في الشريعة الإسلامية هو محور الخطاب الديني والركيزة التي يقوم عليها، ففي الرسالة التي كان يخاطب فيها صاحبه، نجده استخدام **العقل** إلى جانب مصادر التشريع للوقوف على حقيقة الكرامات وإثباتها للأولياء، بقوله:" وقد يرزق الكرامة من لم تكن له استقامة حكمة من الله،

والتفرقة بين الصادق والكاذب تقع في القلب بوجوه، ويحكم بها جيّد الخاطر، سريرة المرء تبديها شمائله حتّى يرى الناس ما يخفيه إعلاناً، فاجعل سريرتك التقوى ترى أقلاّ في كل ما أنت تبغيه وبرهانا.[52] وفي موضع آخر قال:"...إذا خلصت العقول من الشبهات بدت من الله أنواع الكرامات، ومن ألزم الفكرة قلبه ملاه الله نوراً وحكمة...".[(53)]

كما نجده احترم العقل وسخّره في اكتشاف حقيقة الكرامات مستنبطاً ذلك من الأدلة الشرعية والمواعظ والأشعار والعجائب المأثورة عن القوم وبعض أسرار أهل التصوف، وغيرها من الأدلة المقنعة.

كما أعاب على الفرق الضالة والزائغة **بتقصيرهم للعقل**، وسبب قصورهم يعود إلى قصوره، فقال:" فنظروا بمرآتهم الناقصة **وضعّفوا عقول** الأولياء فيما يستخرجونه من الحكم النورانية من يحوز الغيب، وتسفّهوا بذلك آرائهم بعقولهم الركيكة، وزعموا أن هذه الكرامات التي يمد الله بها أفراد عباده وهمٌ لا حقائق لها، وإنما هي تلبيسات وتخييلات فاسدة، لسوء المزاج، لاسيما لمن قهر نفسه وأخذها بأنواع المجاهدات...".[(54)]

لذلك كان يقتضي **منطق** عصر موسى المازوني بأن الكرامات حقيقة لا تعارض العقل ولا تناقض العلم الشرعي، وأنّ ليس هناك معرفة دينية إلاّ في الدين وكرامات الأولياء صرّحت بها مصادر التشريع.

فعلى مُتَكَلِّمِي العصر أن يعمّقوا نظرتهم، ويحاربوا من يسعى إلى تجميد العقول وتهميش البحث في مثل هذه المسائل المعقّدة، التي تحتاج إلى الشرع والعقل معاً، لكي يَنْجَلِي اللُّبس عنها.

فالخطاب الديني هو الذي **يوجه العقل** لإدراك المقاصد في الدين، وفي الأحكام التي يدعوا إليها، من حيث أنه يضيء له الطريق، ويهديه سواء السبيل، ويوجهه إلى التفكير الصحيح والعقيدة السليمة، والتدبر الواعي، الذي يقوده إلى استنباط الأحكام، ويشعره بالحاجة إلى المعرفة الحقيقية.

والعقل هو الذي يعطي مفاتيح البرهنة والاستدلال على حقيقة مناقب وكرامات الصلحاء، وفي ذلك يقول: " وجائز في العقل أن يخرق الله العوائد للكذّاب، لكنه سبحانه لا يظلّ به الخَلْق، فإذا أظهرت قبض الله له من علماء الملة من فضلاء الأخيار من يفضح سريرته ويكشف خبيئته ويبدي للناس عورته، وفي هذه المبادئ، التي قدمناها ما يقوي إيمان الضعفاء، ويزيل عن قلوب الجهلة كثيراً من الشكوك، ويقوي بصائر المحبّين، وجعلناها توطئة لما نحن بصدده، فكان من عارضه شيء فيما ينهى إليه من معجب أمر القوم وأحوالهم بَشرَهُ ومحيى أثره بما قدمناه...".[55]

كما نجده دعّم أرائه بأمثلة عن معجزات الأنبياء، فقال:"...كما أعجز عيسى عليه السلام أطباء وقته بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وهم إذ ذلك أوفر ما يكون وأدق نظر في فنون الطب وألطف نظراً فيه...".[56]

للأولياء مناقب مشهورة، فاشهد بها حق الشهادة وأقطع، ورد الكتاب بها وسنة أحمدٍ، فاشدد بين يديك على الحسام الأقطع، خرق العوائد مُمْكِن لاسيما في حق أصحاب المقام الأرفع، ورد أبحار مواهب مختومة عن غيرهم.[57]

اعلم أنه لا تكون الكرامة إلاّ لأهل اليقين،" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ".[58]

وبالمقابل نجده **سلك في منهجه** هذا مسلك المعارض، وذلك بوقوفه ضدّ من يدّعي الكرامات، وهو من المحتالين والمتلبسين في غطاء الصلحاء والأولياء، وهو من الدجاجلة المبتدعين الزائغين، هدفه أكل أموال الناس بالباطل، وفي ذلك يقول: "... وما رأيت بعض أئمتنا المقتدى بهم منكراً للكرامات، ذلك منه غيرة على الدين، حين ادعاها محتالين، وهم من المتلبسين المتصدين لأكل أموال العربان والسلاطين، وكذا جهلة الناس ومن لا علم عنده، ولا بصيرة من رِعَاع الناس والأغبياء، وذو العقول الناقصة بضروب من الحيَل، والتهون في طريق الصالحين، وتمذهبوا بمذاهب قبيحة، وارتكبوا منازع من الباطل صريحة لا يرضاها الله ورسوله ولا أئمة المسلمين، تمويهاً على من تورط في بدعهم وضلالهم، وانخرط في أهواء خدعَهُمْ الشيطان، فسوّل لهم وأملى لهم واستفزّهم بغروره واستمالهم، نعوذ بالله من غوائل الهوا، القائد إلى التهلكة والردا، وقد سمعنا ورأينا من هؤلاء أصنافاً كثيرة بالقرى والمجاشر لا يقبلون إن نصحوا ولا يسمعون إن ادعوا، وما مرادهم في ذلك ومقصدهم الخُبْثُ إلاّ أن يشتهروا ويصرفوا كثيراً منهم واحتيالاً، وهم في ذلك على أقسام...".[59]

كما **حذّر** في منهجه هذا مِمَّن يدعي مع الله حالا لا يكون على ظاهره، بقوله: "...من رأيته يدّعي مع الله حالاً لا يكون على ظاهره منه

شاهد فاحذره، من خرج إلى الخلق قبل وجود حقيقته تدعوه لذلك، فهو مفتون..."[60].

كما يُسْتَشَفُّ من الأسلوب الذي اتبعه في منهجه العقلي هذا، اعتماده على الشرح الوافي لروح الإسلام واستعراض مزاياه ومقاصده مع التركيز على الحوار الايجابي، وتحرّي أساليب الإقناع في إطار ما يسمّى بحوار مختلف طوائف الملّة والاتجاهات الفكرية التي عرفها عصره، ولا يمكن أن يكون ذلك إلاّ بالاعتماد على التفكير العقلي السليم.

بالرغم من سلوكه مسلك أهل السنة في الدفاع عن الأولياء وإثبات الكرامات، فإن منهجه هذا فيه لبس وغموض، يحتاج إلى تحليل وتعليل ونقد، خاصة عند ذكره مناقب وكرامات بعض الأولياء، وما يتعلّق بزيارة قبورهم وما يحصل من سلوك من هؤلاء الزائرين، فجاء في إحدى المواضع عند ذكر الشيخ أبو مهدي عيسى بن فكرون، بأن قبره بمقبرة **من جبل وانشريس** مشهور معروف بالبركات وإجابة الدعوات، ما زال الناس يقصدونه ويزورونه ذوو العاهات، والمرضى للاستشفاء.[61]

ونفس الشيء نجده عند الحديث عن مناقب الشيخ سيدي أبي يعقوب، ذكر بأن قبره ببني حلوان بساحل مازونة مشهور متبرك به، يقرع لحَمَا في أوقات النّهب والفساد، وشنّ الغارات على أهل هذه البلاد، فلا يرى الله من اعتصم به واستَنَدَ لحرمه، سواء ببركته وبركة سلفه الصالح.[62]

وكذلك مع القطب العارف سيدي واضح، بقوله: "...أن ضريح الشيخ سيدي واضح من لدن وفاته إلى هلمّ لِحَوْض مؤْرُود وعيدٌ مشهُود، تفيضُ بركاتهُ حياً وميتاً بفضل الله على زواره وأهل قراره،

ويعتصم أهل تلك النواحي في أوقات النهب بحرمِهِ وجِوَارِه، فلا يرون والحمد لله ما يسوءهم..."[63].

فكيف يتوجه هؤلاء الناس للأموات ويتضرعون لهم، ويقفون أمام قبورهم، بِخُضُوعٍ وخُشُوعٍ تَامَّيْنِ على اعتقاد أن تلك القبور والأضرحة تقربهم إلى الله، وتتوسط لهم إليه بقضاء الحوائج وجلب الرغائب ودفع المصائب والمظالم.

هذا الموقف حيّرنا في منهجه هذا، نتساءل لماذا سكت في مثل هذه المسائل بدون تعليق أو أشفاء غليل، حتّى أنه في بعض المواضع صرّح علانية أنه جرّب ذلك مع سيدي واضح، ففرّج الله عليه، حيث قال:"... ومما وجدت صحّته بالتجربة أن كثيراً من المكروبين والملهوفين إذا استغاثوا بصالحٍ ولو كان ميّتاً في دفع ما أهمّهم من المصائب يذيقهم الله برد الإجابة. فَهُنا فليصرف العقلاء هممهم ويجيلوا فكرهم، وقد سمعت عن سيدي واضح أنه قال في حياته: وقد قبض على لحيته، هذه اللحية بفضل الله تنفع بعد موتها ما لا تنفع في حياتها. أمّا أنا فقد جرّبته في نفسي فوجدت برد الإجابة من فوري.[64] وأخبرني ثقة من فضلاء طلبة بلدنا أنه طولب بعودة مغرم، فحصلت له البراءة بفضل بركة الشيخ سيدي واضح.[65]

أظنه هنا قد جانب الصواب، وقوله هذا يحتاج إلى نظر، إذ ليس يلازم أن يثبت الكرامة بقول ما قاله في هذه المقالة، بل يكفي أن يثبتها بمصادر التشريع مع الدليل العقلي، الذي لا يتنافى مع الشرع.

3- توثيق أخبار الأولياء الذين ترجم لهم في تأليفه صلحاء وادي الشلف:

إن صحّة وُرُود الأخبار بالتوثيق الدقيق والمنهج العلمي لا يتّسم به إلاّ فئة قليلة من العلماء، الذين يدركون أهمية الخبر الصحيح في بناء الأحكام والتوصل إلى النتائج السليمة، لذلك نجد **موسى المازوني** في تأليفه هذا عندما ينقل **الروايات الشفوية** لترجمة هؤلاء الأولياء والصلحاء، كان حريصاً على ضبط الخبر من وجوهه الصحيحة، ومن مظانه الموثوق بها، مستعملاً في ذلك **منهجه العلمي الدقيق**، الذي يعتمد على الرواية من العلماء الثقاة، اللذين عاصروا أولائك الأولياء أو كانوا قريبين منهم، وكان يتتبع سند الرواية من الطريق الصحيح الذي يثق به.

فنجده سعى في منهجه هذا إلى **تحرّي دقيق** في تتبع أخبار وكرامات الصلحاء التي ترجم لهم في كتابه هذا، فكان يذكرها إمّا نقلاً عن هؤلاء الرواة الثقات أو من الأعلام الذين جاءوا من بعدهم، رواية خلف عن سلف على وجه التحقيق، وصرّح بذلك في خاتمة مقدمة تأليفه هذا عند حديثه عن إثبات الكرامات، بقوله:" وقد آن الشروع في جلب حكايات ما تحصّل لدينا من مناقب المشيخة بالصلاح في هذه الأوطان الشلفية، لخّصنا الكثير منها من موضوعاتنا في التصوف، حيث بسطنا القول في ذلك، وأثبتنا ما نقل إلينا على ألسنة بعض الثقات من جلة فضلاء علماء حوزتنا وكثير من المشهورين، ممن تسكن النفس لقوله من عجيب أخبارهم، وكريم آثارهم...".[(66)]

فحينما ترجم لأبي البيان سيدي واضح، ذكر ما عرف به من كرامات ومكاشفات، ممّا حدّثه به شيوخ ثقات، فقال:"...حدّثنا شيخنا

الأستاذ العدل أبو زكريا يحيى بن عمر، قال: سمعت من سيدي عبد الله بن يوسف، قال لي: **وهو ممن يوثق بقوله** أنه رأى لأبي حامد الغزالي تأليفاً دعا الله فيه أن يطلعه على أسرار الخلق وأنه وقف على تأليف من مواليفه ذكر فيه أسماء أولياء الله تعالى ممّن تقدم عنه أو يأتي بعده إلى يوم القيامة، فذكر فيه ما نصّه: ومنهم أبو البيان سيدي واضح بجبل وافرشان.[67]

وفي ترجمته للشيخ أبي زكريا دفين جبل بيسة[68] قال: "...وكراماته أعاد الله علينا من بركته مشهورة، وما قيّدته منها، **هو الذي تحققته على ألسنة الفضلاء**.[69]

وبفضل هذا **التحري الدقيق للأخبار**، نجده وقف على بعض الزيف والتحريف في ترجمة بعض الصلحاء، مستعملاً في ذلك **منهجه العلمي الدقيق**، الذي يعتمد على الرواية الشفوية من العلماء الثقات، الذين عاصروا أولائك المزيفين أو المهملين في رواياتهم، وممّا وقف عليه في ذلك الزيف عندما ترجم للشيخ أبي زكريا السالف الذكر، وقال بأنه ليس من قبيلة مغيلة، وذلك بقوله:" قال لي الأستاذ أبو زكريا: أنه **ليس من مغيلة** جبل وانشريس وإنما هو سفياني أو خَلْطِي من عرب المغرب...".[70]

كما أنه كان **حريصاً** على تحديد تاريخ ولادة ووفاة هؤلاء الصلحاء الذين ترجم لهم، بالتحري والتدقيق وتتبع الأخبار، إلاّ أنه عجز عن الوقوف على تاريخ مولدهم أو وفاتهم، وللأمانة العلمية تركها مجهولة، وذلك بقوله:"...وبحثت على تاريخ مولد الشيخ سيدي واضح أو عام وفاته، فلم أجد **علم ذلك عند أحدٍ**، وكذلك ذكر حفيده أبو

محمد في قصيدته، إلاّ أنه توفي عن تحقيق في أواخر القرن السابع الهجري..."[71].

هكذا كان يقف على المزايا العلمية وكرامات هؤلاء الصلحاء في ترجمته لهم من خلال منهج التحرّي والتدقيق ، فكان يذكر تلك التراجم بإيجابياتها وسلبياتها دون زيادة أو نقصان.

وبهذا المنهج يستطيع الباحث والدارس لعصر موسى المازوني وأحوال الصلحاء والأولياء والمريدين أن يجلي الحقائق العلمية بموضوعية، ويبني أحكامه بدقة في المجال الثقافي أو الحركة الصوفية بالمغرب الأوسط.

فالخطاب الديني الذي توجه به إلى منكري الكرامات، كان بحاجة إلى حشد الأدلة الشرعية المستنبطة من مصادر التشريع، دون إغفال الأدلّة التاريخية، التي اعتمد فيها بدرجة كبيرة على **الرواية الشفوية**، التي منحته نماذج ممن وهبوا الكرامات والمكاشفات، وما هم برسل أو أنبياء، بل أولياء الله، فهي فعل خارق للعادة، تظهر على يد عبد صالح في دينه، كما أنها تعبّر عن صدق عبادة الولي وعلو مكانه عند ربّه.

ومهما يكن من أمر فموسى المازوني برهن **بمنهجه العلمي** عن اطلاع واسع ودقيق في شؤون الفقه والتصوف، وأبان على قدرة عجيبة في استنباط الأحكام والاستدلال بالحجج المستمدة من مصادر التشريع، التي يستند إليها كل مفتي، وكل مجتهد، تتوفر فيه شروط الفتوى والاجتهاد.

كما أن هذا الرد على الزائغين والانتصار للأولياء في هذا التأليف يصطبغ بصبغة موسوعية، تذكرنا بثقافة الفقيه التلمساني

ابن مرزوق الخطيب، وتأصيل فتاويه. فهذا الكتاب يحتوي على العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأحكام الفقهية والأخبار والآثار والسير والنوادر والطرائف والغرائب وعلم الكلام وشؤون الخلاف بين المذاهب الفقهية، وآراء الصوفية، فكان يجمع من هذه العلوم ما يجعلنا نطمئن إلى ثقافة الفقيه **موسى المازوني** الواسعة والمتنوعة، مطلعاً على كل فنون المعرفة، **وتعمّقه** في علوم القرآن والحديث والفقه، وعلم التصوف من جهة.

ومن جهة ثانية استطاع الوقوف على حقيقة الكرامات والمناقب الصوفية وأصلها في الدين من خلال اعتماده على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، تنوعت أدواته ما بين الدليل العقلي والنقلي وتوثيق الأخبار، معتمداً فيه على **الرواية الشفوية** في ذكر مناقب وكرامات هؤلاء الصلحاء، إلاّ أنه اعتمد في سردها على من يثق فيهم، وعرفوا بالعدل والصدق، وكان يختار الأصح من الروايات، وكلما شك في رواية إلاّ وتركها ولا يأخذ بها، وهذه الرواية تشبه إلى حدٍّ كبير رواية الحديث، ويتجلى ذلك عندما يذكر السند المتصل، وعبارة الثقات.

في حين لم يكتف موسى المازوني بترجمة مجردة لصلحاء وادي الشلف، بل كان يدعّمها بأبيات شعرية، ومواعظ ذكية، وعجائب مأثورة، وبعض أسرار أهل التصوف، إلاّ أنه كان يكتفي في بعض الأحيان بذكرها دون تأصيل كلامه هذا إلى صاحبه. إلاّ أنه لم يخرج في ترجمته عن الإطار الذي وضعه في بداية تأليفه هذا، فإذا استطرد ولي أو صوفي خارج منطقة وادي الشلف، كان يتحاشى ذكر مناقبه حتّى يسير في منهج دقيق يحترم فيه عنوان تأليفه وأن لا يخرج عن مقصده،

فعندما كان يترجم للولي أبو عبد الله الأبرش، قال: وزعموا أنه تلميذ الشيخ الإمام، العالم، العامل الصوفي الزاهد أبي الحسن بن حزام، ولولا أن القصد بهذا من ذكرنا من الرجال الشلفية لذكرنا بعض مناقبه..."[72].

كما نجده استعمل الأسلوب القرآني في الكثير من المواضع، وكان يدعّم آرائه بآراء من سبقه من أهل السنة المتكلمين كالباقلاني، والزهاد كإبراهيم ابن أدهم والقشيري الصوفي، وكان في بعض الأحيان يشير إلى كتب كان قد حفظها أو طالعها بدون التعمق فيما نقله منها، وإنما الذي كان يهمّه هو ذكر المناقب والكرامات دون تحليل بعض المعطيات التاريخية، وإعطاء بعض المعلومات عن حياتهم.

كما أنه لم يقتصر في منهج تأليفه هذا على نقض الطعون التي وجهت لكرامات الأولياء، بل أضاف إلى ذلك بحوثاً كثيرة ومتنوعة في علم التصوف أوفاها حقّها، مثل مراتب الصوفية، كالأبدال، والقطبية...الخ.

هذه جوانب من **منهج الفقيه موسى** المازوني في كتاباته الصوفية، التي انتصر فيها للأولياء والصلحاء، والرد بها على الزائغين المتكلمين، الناكرين للكرامات، فقد كان يقف بتحليل دقيق ورؤية نقدية ومعرفة واسعة في علوم الشريعة والتصوف، اللذين كان ينتصر بهما للأولياء والصلحاء والمريدين، وهي علوم دينية وأدبية وتاريخية.

يتضح ممّا سبق أن الفقيه القاضي موسى المازوني هو مُتَكَلِّم سني دافع عن كرامات ومناقب الأولياء، هو صاحب طريقة فريدة في إقحام الخصم، له حجة قوية في إثبات الحق، مكثراً في الحجج النقلية والعقلية، وعلمه أصيل من فكره وإملائه، قلّ أن ينقل من غيره،

فكتابه صلحاء وادي الشلف جاء ليتمّ ما بدأه الغبريني في كتابه عنوان الدراية، الذي ترجم فيه لعلماء وصلحاء بجاية، وسار على نهجهما فيما بعد ابن مريم المدبوني في كتابه البستان، الذي ترجم فيه لعلماء وصلحاء تلمسان.

ويعد كتابه صلحاء وادي الشلف إلى جانب كتاب ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار من أوسع ما كتب للاحتجاج ضد الرافضين لمناقب وكرامات الأولياء والصلحاء، به مناقشات غنية وأذكار فريدة، وحجج منطقية، وأدلة دامغة للخصم، موضحة للحق.

وخلاصة القول: أن الفقيه القاضي موسى المازوني هو عَلَمٌ من أعلام الجزائر وأحد رُوَّاد **مدرسة مازونة الفقهية** خلال العصر الوسيط، التي ساهمت في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في مجال العلوم الدينية.

ما أحوجنا اليوم إلى الرجال الصالحين ودعاة مؤمنين لم تستعبدهم الأهواء والشهوات، اتصفوا بصفات عباد الرحمن وتخلقوا بأخلاق الإحسان، وبالصفوة لهذه الأمة وعلمائها المخلصين وقادتها الراشدين القائمين بحراسة الدين ودنيا الناس تَكُوُن الأمة بخير إن شاء الله.

ملحق رقم:01. يبين مقدمة مخطوط صلحاء وادي الشلف،

ورقة03

ملحق رقم: 02. يبين بداية ترجمة أبو البيان سيدي واضح، ورقة50

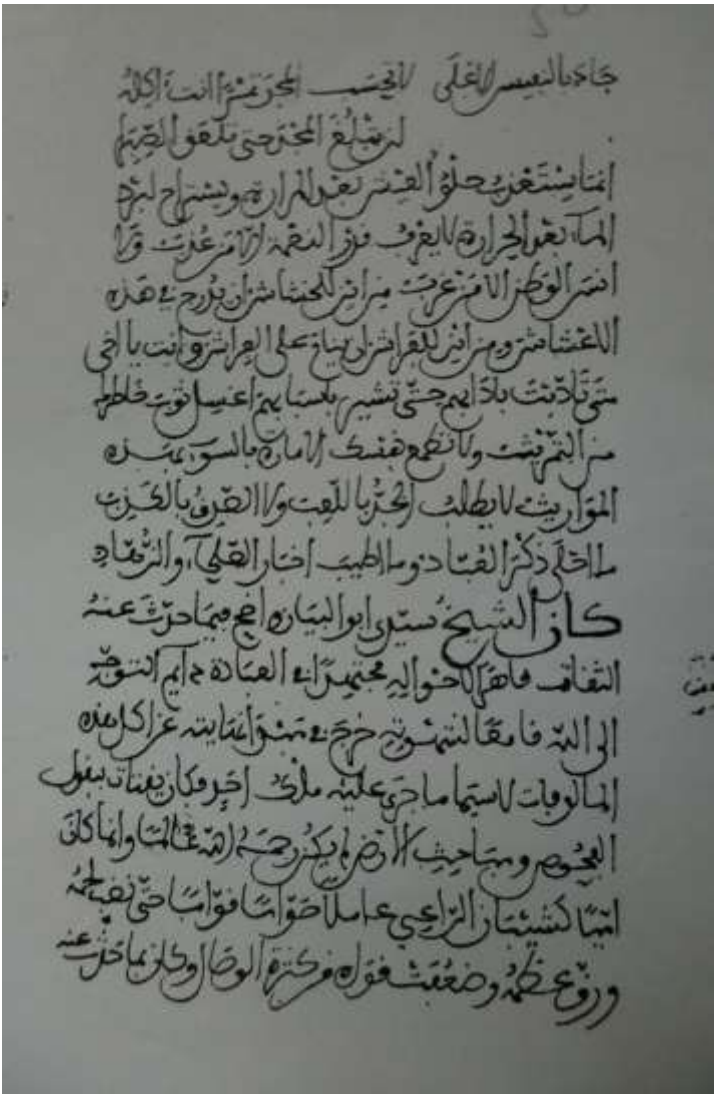

ملحق رقم: 03. يبين بداية ترجمة أبو البيان سيدي واضح، ورقة319

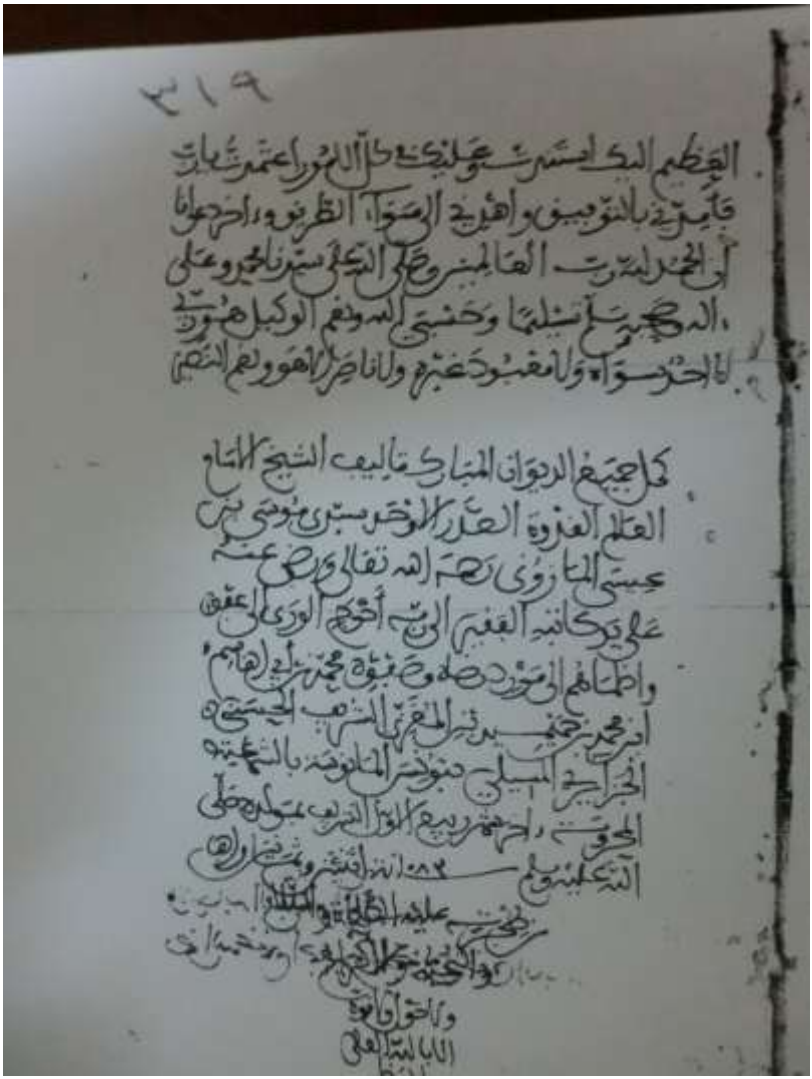

الهوامش:

(1) تحتفظ لنا المكتبة الوطنية المغربية بنسخة نفيسة وفريدة لهذا المخطوط، مسجلة تحت رقم: ك 2343.

(2) هي بلدة عريقة عتيقة أسست في قلب جبال الظهرة بين وادي الشلف والبحر المتوسط، كان اختطاطها سنة 565هـ/1170م بعمالة وهران، على يد منديل بن عبد الرحمن المغراوي، أشهر زعماء قبيلة مغراوة، التي هي إحدى فصائل قبيلة زناتة. وهي مدينة تقع على ستة أميال من البحر، وهي مدينة بين أجبل في أسفل خندق ولها أنهار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة ومساكن مونقة ولسوقها يوم معلوم يجتمع إليه أصناف من البربر بضروب من الفواكه والألبان، والسمن، والعسل كثير بها، وهي من أحسن البلاد صفة وأكثرها فواكه وخصبا. أنظر/حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر،ج2،ط2،دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م،ص36 العبدري، **الرحلة المغربية**، تحقيق محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1968م، ص131.

(3) ابن يحيى بن إدريس الناصر بن عبد الرحمن، صاحب مازونة القديمة. هذا الاسم وقفنا عليه في رسالة حول نسب الأسرة، بخزانة الصادق بلحميسي، أحد حفدة صاحب الدرر. له منّا جزيل الشكر وجميل العرفان - على سعة صدره وتواضعه وحبّه لطلبة العلم والباحثين- لمّا فتح لنا خزانة مكتبته وأطلعنا على نفائسها، لكي نستفيد منها في بحوثنا حول أعلام الأسرة المازونية.

(4) أحمد بابا التنبكتي،**نيل الابتهاج بتطريز الديباج**،تقديم عبد الحميد عبد الله الهدامة،منشورات الدعوة الإسلامية،طرابلس، ليبيا،1989م،ص605. أحمد بن يحيى الونشريسي، **الوفيات**، تحقيق محمد بن يوسف القاضي، شركة نوابغ الفكر، دت، ص106.

(5) الناسخ هو محمد بن أبي القاسم بن محمد بن حميميد بن المغزي الشريف الحسني الجزائري المسيلي، نسخها بتونس سنة 1082هـ انظر/ موسى المازوني، **صلحاء وادي الشلف**، مصدر سابق، ورقة319.

[6] قبيلة مغيلة: هي بطن من بطون بني فاتن إحدى القبائل البربرية من قبائل زناتة، ومواطنها بمواطن مغراوة، ومغيلة توجد واحدة بالمغرب الأقصى، والأخرى بالمغرب الأوسط عند مصب حوض الشلف في البحر من ضواحي مازونة، وهي التي ينسب إليها مؤلف الدرر.أنظر/ عبد الرحمن بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** المسمى بتاريخ ابن خلدون، ج6، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1959م، ص120، 148، 206.

[7] أبو القاسم الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906م، ص572.

[8] قمنا بتحقيق الجزء الرابع المسمّى بكتاب الجامع من هذه النوازل، قدمناه أطروحة لنيل درجة الدكتوراه بقسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2011م.

[9] لفظ مقتبس من القرآن الكريم، لقوله تعالى: " وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ". سورة النور، الآية: 39.

[10] موسى المازوني، **قلادة التسجيلات والعقود وتصرف القاضي والشهود**، ورقة01 ظهر. نملك منه نسخة مصورة.

[11] لفظ مقتبس من القرآن الكريم، لقوله تعالى: " وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ".سورة آل عمران، الآية:167.

[12] موسى المازوني، **قلادة التسجيلات**، مصدر سابق، ورقة 01ظهر.

[13] **المصدر نفسه**، ورقة 02وجه.

[14] أبو زكريا يحي المازوني، **الدرر المكنونة في نوازل مازونة(الجزء الرابع الخاص بكتاب الجامع)**، دراسة وتحقيق غرداوي نور الدين، ج1، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر2، 2011م، ص397.

[15] توجد منه نسخة في مكتبة الشيخ المرحوم المهدي البوعبدلي ببطيوة، وهذه الخزانة مغلقة حالياً.

(16) هذا التأليف هو موضوع دراستنا، عنوانه: صلحاء وادي الشلف. سبق ذكره في بداية بحثنا هذا.

(17) أبو القاسم الحفناوي، **مرجع سابق**، ص572، 573.

(18) مغيلة مازونة وأحوازها، وليس مغيلة الونشريس.

(19) أحمد بابا التمبكتي، **كفاية المحتاج ممن ليس في الديباج**، دراسة وتحقيق محمد مطيع، ج1، مطبعة فضالة، المغرب الأقصى، 2000م، ص310.

(20) موسى المازوني، **قلادة التسجيلات والعقود وتصرف القاضي والشهود**، مخطوط بخزانة الزاوية العثمانية، طولقة، الجزائر، ورقة169ظهر..

(21) موسى المازوني، **صلحاء**، مصدر سابق، ورقة107.

(22) **المصدر نفسه**، ورقة293.

(23) **المصدر نفسه**، ورقة108.

(24) **المصدر نفسه**، ورقة298.

(25) **يعني كتابه ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار**، لأن مخطوط صلحاء وادي الشلف هو مختصر لهذا الكتاب.

(26) موسى المازوني، **صلحاء**، مصدر سابق، ورقة116، ورقة139.

(27) ذكره أيضاً في كتاب صلحاء الشلف.

(28) توجد منه نسخة في متحف سيرتا بقسنطينة.

(29) ذكره في كتاب صلحاء وادي الشلف. انظر/ **المصدر نفسه**، ورقة143.

(30) نملك منه نسختين مصوّرتين، قدّم أحد الزملاء جزء منه كمشروع أكاديمي للتحقيق، أعمل على تحقيق الجزء الثاني منه حالياً.

(31) نملك منه نسختين مصورتين، نرغب في تحقيقه.

(32) قدمنا دراسة حول هذا الولي، القطب العارف، في اليومين الدراسيين، اللذين نظمتهما ولاية تسمسيلت حول تاريخ وتراث منطقة الونشريس، وهي تحت الطبع. عنوانها: **مناقب وكرامات القطب العارف أبو البيان سيدي واضح وتأثيرها في منطقة الونشريس**، تمّ التركيز فيها على علاقة سيدي واضح بالحاج الصالح المتعبد الزاهد أبو مهدي عيسى بن فكرون الونشريسي.

(33) موسى المازوني، **صلحاء**، مصدر سابق، ورقة 03.

(34) أجمع أهل السنة على جواز خرق العادة للأولياء على وجه الكرامات ومنع ذلك المعتزلة إطباقا منهم على إنكارها. وكان الأستاذ أبو إسحاق يميل إلى قريب من مذهبهم، وكان ذلك عنده من قبيل إجابة الدعاء. أنظر/ عبد الحق بن إسماعيل البادسي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق سعيد اعراب، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1993م، ص39.

(35) موسى المازوني، **صلحاء**، مصدر سابق، ورقة03، ورقة04.

(36) **نفسه.**

(37) وافرشان حالياً هي سلسلة جبلية تقع في الجهة اليسرى من سد قرقر، بهذا الجبل نجد قبيلة الواضحة (أولاد ملوكة، العواصم...)، وقبيلتي العرايس والقْرَايرِية. وفي الجهة اليمنى من السد نجد جبل العبادي، المتصل بقبيلة مكناسة، وهذا الجبل يوجد به كاف العبادي، كان به عرش أولاد بوعلام، رحل أغلب سكانه، بعد بناء سد قرقر سنة 1984م، ويقي داور صغير يسمى المعارفية، وهذا السد هو الثالث على المستوى الوطني، بعد سد بني هارون بميلة، وسد واد لحكل بالبويرة، تتسع مساحته لحوالي أربعمائة وخمسون مليون متر مكعب على امتداد طولي يقدر بحوالي 20 كلم^2.

(38) المكاشفة جاذبة بخاصيتها نور عين البصيرة إلى فيض الغيث، فيتصل نورها به اتصال الشعاع بالزجاجة الصافية، حال مقابلتها المتبع المجذوب إلى قَبْضِه، ثم يتقاذف نوره منعكسًا بضوئه على صفاء القلب، ثم يرتقي ساطعاً إلى عالم العقل، فيتصل به اتصالا معنوياً له في استضافة نور العقل على ساحل العقل، فيشرف نور القلب على إنسان عيْن السِرّ، فيرى ما خفي عن الأبصار موضِعُه ودَقَّ على الإفهام تصوره، واستتر عن الأعيان مرآه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. انظر/ موسى المازوني، **صلحاء**، مصدر سابق، ورقة63.

(39) يوجد في بلدية لحلاف دائرة واد رهيو حالياً عرش أولاد يَكْنِي، ويسمونهم بني أوريغ. يبدوا أن هذا العرش هم ذرية هذا الولي الصالح الذي ذكره موسى المازوني خلال القرن السابع الهجري.

(40) أجمع أهل السنة على جواز خرق العادة للأولياء على وجه الكرامات ومنع ذلك المعتزلة إطباقا منهم على إنكارها. وكان الأستاذ(أبو إسحاق الاسفرائيني) يميل إلى قريب من

مذهبهم، وكان ذلك عنده من قبيل إجابة الدعاء. انظر/ عبد الحق بن إسماعيل البادسي، **مصدر سابق**، ص39.

(41) موسى المازوني، **صلحاء**، مصدر سابق، ورقة03، ورقة04.

(42) **نفسه**.

(43) موسى المازوني، **صلحاء**، مصدر سابق، ورقة33.

ذهب القاضي الباقلاني وغيره من المحققين أن ما جاز أن يكون مقدوراً لله تعالى، جاز وقوعه كرامة للأولياء، وأن كل كرامة تظهر على يد وليٍّ، فهي محسوبة في معجزة ذلك النبي، إذ بسبب إتباعه له واقتدائه بشريعته ظهرت له الكرامة. انظر/ عبد الحق البادسي، **مصدر سابق**، ص39.

(44) موسى المازوني، **صلحاء**، مصدر سابق، ورقة34.

(45) **المصدر نفسه**، ورقة30.

(46) **المصدر نفسه**، ورقة33.

(47) **المصدر نفسه**، ورقة28.

(48) قال تعالى:" وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ". سورة يونس، الآية:99.

(49) موسى المازوني، **صلحاء**، مصدر سابق، ورقة39.

(50) **المصدر نفسه**، ورقة213.

(51) **المصدر نفسه**، ورقة18.

(52) **المصدر نفسه**، ورقة47.

(53) **المصدر نفسه**، ورقة25.

(54) **المصدر نفسه**، ورقة04.

(55) **المصدر نفسه**، ورقة47، 48.

(56) **المصدر نفسه**، ورقة 15.

(57) **المصدر نفسه**، ورقة47.

(58) سورة الأنفال، الآية: 29 .

(59) موسى المازوني، **صلحاء**، مصدر سابق، ورقة 40، 41.

(60) **المصدر نفسه**، ورقة 44.

(61) **المصدر نفسه**، ورقة97

ذكر أبو عبد الله بن محمد المغوفل في تأليفه: وكان الجد الأعلى أبو مهدي عيسى للقطب العارف سيدي واضح بن عاصم متردد إليه في كل حين وله من الحج خمسة وعشرون حجة، ثم ذكر هذه الحكاية مختصرة وأنهاها بأن قبره نفعنا الله به بإزاء **ونشريس** عظيم البركة، يلجأ إليه في الشدائد والأزمات.انظر/ أبو عبد الله المغوفل: **الفلك الكواكب**، مخطوط المكتبة الوطنية، الحامة، الجزائر، رقم 2259، ورقة 7وجه، وظهر.

(62) موسى المازوني، **صلحاء**، مصدر سابق، ورقة 208.

(63) **المصدر نفسه**، ورقة116.

(64) **المصدر نفسه**، ورقة139.

(65) **المصدر نفسه**، ورقة140.

(66) **المصدر نفسه**، ورقة39.

(67) **المصدر نفسه**، ورقة 114.

(68) نسبه التادلي إلى وطن مغيلة، إلاّ أن موسى المازوني فنّد هذه الرواية. انظر/ ابن الزيات يوسف بن يحي التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف**، تحقيق عمر علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2007م، ص244 .

(69) موسى المازوني، **صلحاء**، مصدر سابق، ورقة 249.

(70) **نفسه.**

(71) **المصدر نفسه**، ورقة114.

(72) **المصدر نفسه**، ورقة293.